مبادئ النقد ونظرية الأدب

" نظرية الأدب "

السنة الثانية

د. حسن الأحمد

المحاضرة الأولى

مفهوم الأدب والصعوبات التي تعترض صياغة تعريف الأدب

نظرية الأدب جزء من ثلاثة أجزاء يشملها (علم الأدب)، هي:

١ – **النقد الأدبي**: وسيغطّى في القسم المتعلق بمبادئ النقد، ويعني المقاييس أو القواعد أو المعايير التي يتم بوساطتها دراسة النص الأدبي وتحليله وتقويمه وبيان جوانب النّضج الفني فيه.

٢ – **تاريخ الأدب**: ويهتم بدراسة العمل الأدبي في ضوء علاقته بالزمن والتاريخ والسيرة الذاتية للكاتب.

٣ – **نظرية الأدب**: هي النظرية التي تدرس الأدب من حيث مبادئه ومقولاته ومعاييره بشكل عام، وتُعد الأدب سلسلة من الأعمال المرتبة زمنياً والتي لا تنفصل عن مسار التاريخ ،أي إنها مجموعة من الأفكار والآراء المتسقة التي تهتم بالبحث في نشأة الأدب وطبيعته ووظائفه .

والموضوع الأساسي لنظرية الأدب هو الإجابة عن سؤال (ما الأدب)؛ أي ما هي العناصر الواجب توافرها في كتابة ما ليطلق عليها صفة (الكتابة الأدبية)، وبالتالي يكون عملها التمييز بين الأدب واللا أدب، والأدبي واللا أدبي.

فنظرية الأدب إذن **هي نظرية خاصة بالأدب تعمل على توصيف الأدب بشكل عام ،ووضع معايير خاصة يتم بموجبها صياغة مفاهيم خاصة بالأدب من حيث أدبيته وأجناسه والمحاور المرتبطة به كالقراءة والمدارس الأدبية والفروق بين أجناسه...**

مفهوم الأدب

لصياغة مفهوم للأدب يحدد ماهيته يلزم التنبيه إلى مجموعة من الصعوبات التي تعترض هذه الصياغة، وهي ناشئة عن جملة من المتغيرات التي ترافق الأدب، وهي:

١– الزمن: أي المراحل التاريخية التي يتشكل فيها الأدب، فلدينا في أي أدب زمنان كبيران هما: القديم والحديث، وفي هذين الزمنين هناك مراحل متعددة كذلك ،ولكل زمن آدابه ومعاييره ونظرته لمفهوم الأدب، مثلاً لدينا في أدبنا القديم: الجاهلي، والإسلامي، والأموي، والعباسي، والمملوكي... وفي الحديث: المهجر، والنهضة، وشعر التفعيلة، والقصة القصيرة جداً...

أي إنّ الزمن يؤثر فعلياً في إعاقة وجود مفهوم واحد للأدب يكون صالحاً لكل الأزمنة والعصور.

٢– القومية: أي جنسية الأدب (عربي – فرنسي – ألماني – ياباني– ...)، فكل أدب من حيث قوميته يقوم على لغة خاصة وثقافة خاصة وذوق خاص وواقع خاص ومشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة....، وبالتالي فإنّه من البديهي أن ينشأ أدب له شروطه ومعاييره وسماته الخاصة، مما يشكل كذلك صعوبة في صياغة مفهوم عام للأدب يشترك فيه كل الأمم والثقافات.

٣– **الأجناس الأدبية:** لكل جنس أدبي خصائصه الفنية التي يقوم عليها، فلدينا الشعر والنثر وكل جنس ينقسم إلى أنواع كثيرة (القصة – الخطبة – الشعر التقليدي – الشعر الحر....)، وهذا كله يسهم في جعل التعريف العام للأدب الذي يشمل هذه الأنواع كلها صعباً.

٤– الوظيفة: اللغة هي أداة الأدب، وبها يخرج إلى الوجود، ووظيفة الأدب هي إحدى وظائف اللغة بالضرورة، ويتم عادة تمثيل اللغة في علاقتها بالكاتب والقارئ والنص الأدبي فيما يأتي:

المرسِل	الرسالة	المرسَل إليه
(الكاتب)	(النص)	(القارئ)
	(المعنى)	
	(الوظيفة)	

وللوظيفة في اللغة أنواع كثيرة منها:

١)– ***الوظيفة الأخلاقية***: أي أن تحمل الرسالة هدفاً أخلاقياً كالنصيحة أو الموعظة أو التربية.

٢)– ***وظيفة المتعة:*** كالوظيفة التي يؤديها الأدب لمجرد إمتاع القارئ وتسليته وإحساسه بالطرب.

٣)– ***الوظيفة المعرفية:*** أي اكتساب معارف جديدة، ونقل معلومات للقارئ وغالباً ما تعتمد على الصدق والوثيقة والعلمية، وهذه الوظيفة وإن اعتمدها الأدب في بعض نصوصه فإنَّه يتجاوزها لاحقاً إلى الخيال، أي نقل الحقيقة وعكسها في النص تخييلاً وجمالية.

٤)– ***الوظيفة التعبيرية***: وهي وظيفة خاصة بالكاتب، وبها يستطيع نقل أحاسيسه ومشاعره وانفعالاته فنياً من خلال الأدب، بشرط أن يكيّف الكاتب هذه الوظيفة مع شروط الجنس الأدبي ومعاييره جهة، والقارئ من جهة أخرى ،بحيث يجعل الحالة الفردية التي يشعر بها حالة عامة يجد القارئ أنّها تخاطبه، وحالة فنية أدبية يمكن النظر إليها من خلال الأدب ،أي كعمل أدبي.

٥)– *الوظيفة التطهيريّة:* وهي وظيفة قديمة تحدَّث عنها الفيلسوف اليوناني أرسطو، إذ رأى أن التراجيديا (المأساة) تنمّي عاطفتي الخوف والشفقة عند المتلقي لكنها تجعله أكثر قوة من خلال التطهير ،فعند مشاهدتنا لتراجيديا **أوديب ملكاً** –على سبيل المثال– ذلك الملك الذي انتهى إلى قتل أبيه والزواج من أمه دون أن يعرف وحينما عرف فقأ عينيه وهام على وجهه ،فإننا نشعر بالشفقة على البطل لأن الكوارث التي حلّت به لا يستحقها ،كما أننا نشعر بالخوف لأن ما حدث للبطل قد يحدث لنا ،ومن خلال الشفقة والخوف تتطهر عواطفنا .

فالتراجيديا تتيح لنا تصريف عواطفنا المكبوتة الزائدة (البكاء في التراجيديا والضحك في الكوميديا)،أي تجعلنا أكثر توازناً من الناحية الانفعالية والعاطفية لنتلقى الأدب المتوازن أصلاً دون مشاعر ضارة ومتطرفة ،وبالتالي فإن المشاهد /المتلقي يشعر بالراحة والقوة .وتمثّل أثر التراجيديا في المتلقي في أنها تجعله أكثر سروراً لأنها تريه العذاب دون أن يتعذب ،كما تشعره بالتفوق إزاء الشخصية التراجيدية التي تتألم .

٦)– ***الوظيفة الجمالية:*** وهي الوظيفة المهيمنة في الأدب، ودونها لا يمكن أن يكون هناك أدب وبها يصبح الأدب تعبيراً فنياً له مكوناته الجمالية وعناصره التي تصنع الوظيفة (الصورة – الإيقاع – اللغة....) وسيتم تفصيل هذه الوظيفة لاحقاً.

٥ – العناصر المكونة للأدب:

كل جنس أدبي له عناصره التي يتكون منها (الصورة – الإيقاع – اللفظ – المعنى – الحوار – الشخصيات...).

وبسبب تعدد هذه العناصر يصعب وجود تعريف واحد للأدب يشملها جميعاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ التركيز على عنصر واحد من هذه العناصر يأخذ التعريف باتجاه معين يلغي أو يقلل من شأن الاتجاهات الأخرى، فإن قلنا إنّ الشعر هو لغة؛ أي أسلوب وصياغة، نكون قد ألغينا المعاني، أو قلنا إنّه صورة وخيال نكون قد همّشنا من قيمة عناصر الصياغة والموسيقا.

٦– المناهج النقديّة:

المناهج في النقد هي وجهات نظر وقواعد يُواجه بها العمل الأدبي، وكل منهج له أسسه وشروطه، بعضها يتكامل وبعضها يتناقض أحياناً، وبالتالي اعتماد منهجيّة معينة قد يأخذ مفهوم الأدب لدى هذه المنهجية أو تلك إلى جهة قد لا تتفق مع منهجية أخرى.

ولدينا من المناهج:

التاريخي (يهتم بما هو حول الأدب كالاقتصاد والسياسة والتاريخ وحياة المؤلف)، و**النفسي** (الذي يركز على شخصية الكاتب وأنّ النص تعبير عن هذه الشخصية)، و**البنيوي** (الذي يركز على النّص نفسه دون كاتبه)، و**الفني** (الذي يركز على الجوانب الفنيّة في النص (الصورة– الموسيقا – اللغة..).

٧– الذوق العام:

لكل عصر ذوقه، ولكل ثقافة ذوقها، ولكل قوم ذوقهم، وداخل الفئة الواحدة هناك مجموعة أذواق، والذوق عنصر مهم في تلقي الأدب والنظر إليه ووصفه.

فما هو جميل في مرحلة ما، قد لا يكون كذلك في مرحلة أخرى، واختلاف الأذواق هذا ناجم عن عوامل كثيرة اجتماعيّة وسياسية واقتصادية وذاتية، وطالما أنّ هذه العناصر كلها متغيرة فإنّ الذوق غير ثابت، ومحاولة صياغة مفهوم عام للأدب يتأثر بشكل كبير في طبيعة الذوق الذي يحرّك من يحاول الصياغة.

ومع هذه الصعوبات كلها، يمكن صياغة **تعريف عام** للأدب يتجاوز هذه الصعوبات ويغطي العناصر المشتركة التي يقوم عليها الأدب بغض النظر عن جنسه أو جنسيته أو زمنه ....، وهو:

"الأدب فعل إبداعي يقوم به مبدع في مجتمع محدد، باستخدامه لغة ذلك المجتمع مادة لإبداعه، لتنتج من ذلك آثار مكتوبة لها خصائص الإبداع المعقدة من فكر وصياغة وتنظيم وتصوير للمجتمع وتعبير عن تجربة شخصية واستخدام لمادة اللغة، واعتماد على الخيال، وغلبة الطابع الجمالي على الغرض المعلوماتي، لتجعل هذه الخصائص كلها من ذلك الإنتاج اللغوي أدباً، أي نشاطاً إنسانياً يعكس الموقف الجمالي في المجتمع بعلاقته مع الواقع وطرائق التعبير في هذا الواقع".

تعليق على هذا التعريف:

يشمل التعريف كل ما هو مرتبط بالأدب مبدعاً ونصاً ووظيفةً وعلاقةً بالحياة والمجتمع والقارئ، وأهم العناصر الدّالة في هذا التعريف:

١– **يقوم به المبدع:** فلا أدب دون كاتب، والكاتب هو الأب للنص ومن دونه لا يمكن الوثوق بهذه الكتابة، وقديماً أولى العرب أهميّة كبرى للكاتب ونسبه وظروف حياته.

٢– **فعل إبداعي:** أي له شروط الإبداع من حيث الفن والجدّة والابتكار والابتعاد عمّا هو يومي أو متداول يشترك فيه كل النّاس.

٣– **يُنتَج في مجتمع محدد باستخدام لغة ذلك المجتمع:** فلا يكتب بلغة مجتمع آخر؛ لأنّ اللغة والمجتمع مترابطان، وبالتالي يكون الأدب تعبيراً عن المجتمع بلغته.

٤– **الآثار المكتوبة:** ارتبط الأدب بفكرة الكتابة أي النّص الذي يقوم على عناصر لازمة هي: التنظيم، والتماسك والاستعادة، كما هو دون تغيير ،كما أنّه يمنع التغيير أو التبديل، وحديثاً يطلق مصطلح "البنية" على النص بمعنى ترابط جميع العناصر المكونة له في نسيج واحد يمكّن من دراسته وبيان أوجه التفاعل بين هذه العناصر.

٥– **خصائص الإبداع المعقدة:** أي الخصائص الأدبية التي يتوافر عليها النّص وهي خصائص تشكل الأدب وتعطيه صفته الأدبية.

٦– **تصوير المجتمع:** المقصود به نقل الواقع نقلاً جمالياً غير حرفي، والنقل الجمالي يتم من خلال المحاكاة، بمعنى نقل الواقع كما يجب أن يكون في نظر الكاتب لا كما هو كائن بالفعل مثلما يفعل المؤرخون عادة، وهذا هو الفرق بين عمل الأديب وعمل المؤرخ.

٧– **التعبير عن تجربة شخصية:** أي حضور ذاتية الكاتب في النص من خلال الوظيفة التعبيرية.

٨– **استخدام مادة اللغة:** أي الذهاب إلى اللغة وانتقاء ما يريد من خيارات كثيرة بالاعتماد تقنيات لغوية كالحذف والتقديم والتأخير والتكرار...، وهذا الاستخدام المتكرر هو ما يصنع في النهاية أسلوب الكاتب الخاص.

٩ – **الطابع الجمالي:** أي هيمنة الوظيفة الجمالية، وليس وظيفة نقل المعلومات، فالأدب لا يعطينا معلومات ومعارف ،ولكن ينمّي فينا الحس الجمالي ويخاطبنا من خلال وظيفة المتعة والوظيفة الجمالية التي تقوم على المجاز والتشبيه والاستعارات والكنايات.